نمو اللغة عند الطفل

د.أمير قاسم عبد الله(*)

تمهيد :

تمثل اللغة العربية الدعامة المركزية في هيكلة البناء العام في شخصية الفرد العربي وفي تشكيل أُسسه ومنطلقاته العقلية والنفسية والوجدانية .

اللغة هي الحاضنة والأرض العريضة التي تكتنف في فضاءاتها وفي أغوار أحشائها، الدين والتاريخ والمنجزات التراثية مادية كانت تلك المنجزات أو روحية .

إن لغة جماعة ما من البشر على الأرض هي بعمق تاريخ تلك الجماعة البشرية وبامتداد ذلك التاريخ الزماني والمكاني ، وأهمية هذه اللغة وخطورتها تتحدد صعوداً وهبوطًا، سعة وضيقًا بمدى ما لهذه الشعوب من عطاء روحي ومنجز مادي، وبدور هذه الجماعات والشعوب ومدى قدرتها على المساهمة في تنمية وتطور الحضارة البشرية في مسيرتها الصاعدة والتي لا ترتد أو تتقهقر إلا لتواصل صعودها إلى الأعلى . والحديث عن الدور الذي لعبته وتلعبه اللغة العربية في تشكيل هوية الفرد العربي الوطنية والقومية ومن ثَم الإنسانية، الكونية يقودنا بالضرورة إلى الحديث عن نشأة وحياة هذه اللغة التي تنكبت كما تنكَّبت شعوبها منذ انتكاسة الدولة العربية الإسلامية الأولى وتفتت إمبراطوريتها إلى دويلات وإقطاعيات متعددة شتى، حتى كادت اللغة العربية أن تتحول إلى لغات هجينه واهنة لا تقوى على الوقوف و التصدي أمام الهجمات والتعديات الخارجية التي تنخر في جسدها المترامي الكبير .

تزاوجت البداوة والحضارة في تشكيل اللغة العربية، فتمخض عن هذا التزاوج وليدٌ هرقليٌّ لقاحٌ قوي البنية واضح القسمات والملامح جميلٌ في مطالعه، قويٌّ في بنيته الداخلية ومراميه البعيدة وفي صياغاته وتراكيب مفرداته وجمله ، وتعدد معانيه ودلالاته .

ورثت اللغة العربية عن سلالاتها اللغات القديمة ذلك الحس الأسطوري والجمالي الفطري العميق بعمق آلاف السنين ، تلك اللغات التي نبتت في ذات التربة الحاضنة لهذه اللغات، سواء كانت في الجنوب أو الشمال من شبه الجزيرة العربية أو ما يحيط بها في الجوار شرقًا وغربًا وشمالًا،

(*) رئيس قسم العلاقات العامة بوزارة التربية والتعليم ـ البحرين .

هو الامتداد الطبيعي لشبه الجزيرة العربية جغرافيًّا وبشريًّا وحضاريًّا حيث تتداخل وتتشابك هذه اللغات وتتناغم وتتبادل الواحدة منها دور الأخرى للنهوض بحاجات إنسان وعصر المنطقة، من سومرية و أكادية وبابلية وهيروغليفية وفينيقية وآرامية وسريانية وعبرية .

هذه المجموعة الأسرية من لغات طفولة التاريخ تمثل الجذور الممتدة في عمق الأرض التي نهضت على تربتها اللغة العربية، تلك الدوحة الشجرة التي أمطرها الله (ﷻ) بقرآنه فأخصبت واهتزت ورَبَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج .

إن اللغة العربية التي يصفها البعض جهلًا بالجاهلية حين الحديث عن العصر الجاهلي، ليست إلا خلاصة تجارب العقل البشري والفكري والوجداني على هذه الرقعة في الشرق من العالم . حيث تناسلت هذه اللغات فأنجبت لغة يقطر محركها سلسلة من العربات المكتنزة المليئة بعبق التاريخ والتجارب البشرية، من دينيه وفكرية وعلمية وأسطورية .

إن لغة بهذا الثراء والغنى الفاحش الجميل حيث تمثل كل مفردة جذرًا هو دائرة لأسرة مفرداتية، تتكاثر كائناتها بمجرد استبدال أو قلب حرف واحد .

(بحر ، حرب ، رحب ، حبر، برح ، ربح) .

ويمكن استيلاد الجديد والغريب والأليف، المعروف والوحشي اللا معروف ومما له معنى ومما ليس له معنى .

إن هذا الغنى والثراء لا يقتصر على المعنى والدلالات، بل يتعداه إلى منظومات وسلالم من الأنغام و الأصوات والإيقاعات و النقرات، حيث إن اللغة العربية هي ظاهره صوتية وموسيقية في واحدة من خصائصها العديدة وتعريفتها المختلفة .

ولعل هذه المناعة والحصانة في طبيعة هذه اللغة تقابلها في الجانب الآخر تلك البيئة الحاضنة لهذه اللغة، بسواترها الرملية المتحركة وطرقها الملتوية المضللة والتي هي أشبه بالطوق الأمني الذي حمى هذه اللغة مما يخشى عليها من الغزوات والتعديات أو من هجمات التهجين والعجمة، كما كانت تلك الحضارات التي عاشت على الأرض العربية في الجنوب وفي الشمال وفي المحيط المجاور تمدها بالمصل الحضاري والإمداد التنموي اللازم للتشكيل والإحياء والاستنهاض .

لقد نقل القرآن الكريم بعلومه البيانية والفكرية والتشريعية والفقهية وغيرها اللغة العربية من لغة (القوم) الجماعة والجماعات التي تعيش على رقعة من الأرض معروفة ومحددة، إلى لغة متعددة الشعوب والأمم تتسع جغرافيتها و فضاءاتها باتساع دخول الشعوب والبلدان في منظومة الرسالة العربية الإسلامية .

وكان لدخول الشعوب من فرس وروم وزُنْج وبربر وآخرين في منظومة إمبراطورية اللغة العربية مخاطره ومحاذيره على اللغة، وقد تنبه العرب الأوائل وفي وقت مبكر (القرن الأول الهجري) لهذا الخطر الذي يهدد لغتهم بالعُجْمة حينًا وباللحن حينًا آخر، كما ورد عن أبي الأسود الدؤلي حين أفضى عن خشيته للإمام علي (ع) لما انتاب لسان ابنته من عجمة، فأشار عليه بوضع الخطوط الأولى لتقعيد اللغة، حيطة ووقاية، بغية تقويم ألسنة الأجيال العربية التي تخشى عليها من ألسنة ولغات الأقوام والشعوب الأخرى.

والسؤال الذي نستوحيه في هذا السياق هو:

إذا كانت جرثومة اللحن والعجمة قد أصابت اللسان العربي وهو لم يزل بعد غضًّا طريًّا وفي وقت تتهيأ فيه اللغة لبسط سلطانها وسيادتها على لغات وألسنة الشعوب، فماذا عسانا نقول اليوم في ظل هجمة عالمية شرسة ضارية قُدِّر للعرب (والعربية) أن تكون الرأس المطلوب لا لإخماد جذوتها وحسب بل لردع الشعوب الأخرى؛ وبالتالي الإجهاز على ثقافات هذه الشعوب وطمس معالمها وخصوصياتها الحضارية، بغية تذويبها في تيار هادر شامل و هو ما يُطلق عليه اليوم (العولمة) أو الحضارة السيدة أو الغالبة!

ما العمل؟!

ثمة الكثير من الأسئلة ثمة الكثير من البلبلة

والبلبلة هنا مشتقة من(بابل) التي اختلطت فيها الأقوام والشعوب والألسن واللغات.

لن نحوِّم أو نهوِّم أو نذهب بعيدا في ما ينبغي أن نعمل من أجل لغتنا العربية (فاللغة هي نحن ونحن هي اللغة).

وليس هنالك لغة تسود وتنتشر بمجرد كونها لغة بمعزل عن أهلها وشعوبها وبلدانها، فتطور ورقي لغة هو تطور هذه الشعوب في فكرها وعقلها وآدابها وبالتالي ارتقاء الأمة / اللغة.

العالم اليوم لا يحترم الضعيف ولا يقيم له وزنًا أو اعتبارًا وبقدر ضعفنا و هواننا تهون وتضعف لغتنا. وهذا ما يجعل من لغتنا العربية اليوم كاليتيم على مائدة لغات العالم السيدة واللئيمة في الآن ذاته.

ولعل الخطوة الأولى في الطريق للحفاظ على هذه اللغة هو إعادة الثقة والاعتبار إلى لغتنا.

لا يمكن أن نطالب أحدًا باحترامنا ما لم نكن نحترم أنفسنا، واحترامنا لأنفسنا ينبع من احترامنا لمنجزاتنا التاريخية والدينية ولتراثنا الذي كان الجسر الموصل لحضارة ينعم بها الإنسان اليوم في أرجاء الكون الفسيح.

بداية، ما اللغة؟

عرَّف أبو الفتح عثمان بن جني اللغة في كتابه " الخصائص " تعريفًا يبدو أكثر إحاطة من بعض التعريفات العصرية، فقال: "أما حدُّها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" .

أما المستشرق أرنست رينان في كتابه " تاريخ اللغات السامية" ، فقد وصف اللغة العربية قائلاً بأنها " أقرب سائر لغات الدنيا إلى قواعد المنطق عباراتها سلسة طبيعية " .

في حين تحدث المستشرق ماسينون عن تركيب اللغات المختلفة فأوضح " أن العربية تَفضُل العبرية والسريانية لقدرتها على الجمع بين خصائص السامية والميزات الخاصة التي تتمثل في سعة مدارجها الصوتية من أقصى الحلق إلى ما بعد الشفتين؛ ما أدى إلى انسجام صوتي مع توازن وثبات بالإضافة إلى الرابطة القوية بين ألفاظها ، ولكل صوت من اللغة العربية صفة ومخرج وإيحاء ودلالة ومعنى وإشعاع وصدى وإيقاع " .

والتعريف الأقرب للغة هو أنها "أداة توصيل وتواصل وتعبير عن الأغراض التي تعني (الفكر)" ؛ وهو الأمر الذي يؤكد العلاقة الوثيقة القائمة بين اللغة والفكر .

اللغة العربية هي اللغة الرسمية في البلاد العربية وهي لغة ضاربة في القدم وتشعبت منها عديد اللهجات في بلاد المشرق العربي والمغرب العربي، وقد فرضت بعض اللهجات نفسها في الشارع العربي جراء انتشارها من خلال الدراما في (السينما والتليفزيون والراديو) .

إلا أن وسائل الاتصال قطعت شوطًا كبيرًا في العالم العربي في التقريب بين هذه اللهجات؛ حتى كادت لغة الخطاب العام (المحادثة) تقترب كثيرًا من بعضها لتشكل لهجة عربية قريبة من الفصحى . وتبقى الفصحى هي لغة الكتابة والإبداع الأدبي والعلمي و النقدي .

وكما تتشعب اللهجات تبعًا للأقاليم وللظروف البيئية، كذلك تتشعب لغة الكتابة أو اللغة الفصحى تبعًا لاختلاف فنون القول كالآداب والعلوم والتاريخ والقانون والفلسفة وغيرها، حيث يختلف كل فن من هذه الفنون عن غيره في البيان والاستدلال والاتصال بالنواحي الوجدانية والإدراكية ففي حين يتخذ الكلام مجرد وسيلة للتعبير في لغة العلوم والفلسفة والتاريخ، "نجده يتخذ البيان" غرضًا في ذاته كما في الشعر الذي يخاطب الوجدان والعواطف لا الإدراك والتفكير، وأن غرضه الأساسي هو الإيحاء بالحقائق والأحاسيس لا شرح المسائل وتقريبها إلى الأذهان .

كيف تنمو اللغة عند الطفل؟

يرى العلماء أن الطفل وهو جنين في بطن أمه يحس ويتفاعل، فلا عجب إن رأينا الأم تتحسس بطنها وتخاطب طفلها، إنه بهذا يتلقى دفقات الحنان الأولى وهذا الحنان يستمر عند

إرضاع الطفل حيث الأم تدندن له وتناغيه وتمسح على رأسه فيشعر بالراحة والاستمتاع ويعبر عن ذلك بابتسامة رضا.

والطفل في أشهره الأولى يعبر عن حاجاته بالصراخ والحركات وتبدأ عنده فترة المناغاة اعتباراً من الشهر الثالث، وهنا يكون دور الأم في مناغاة طفلها وترديد بعض الوحدات الصوتية أمامه خاصة الوحدات السهلة عليه، فكلما أكثرت الأم من ذلك تلقى الطفل هذه المناغاة وقام بتخزينها حتى يبدأ النطق. وهو ينطق أولى الكلمات بين الشهرين الحادي عشر والثاني عشر من عمره، وقد يتأخر النطق عند الطفل إلى الشهر الخامس عشر. فإذا نطق الطفل مبكراً فهو لا يعي ذلك ولا يعني أنه فعلاً بدأ النطق فيما إذا تأخر، فلا يجب أن يسبب هذا التأخر القلق لوالديه لأن ذلك أمر اعتيادي لا غرابة فيه.

أما المتأخرين عقليًّا، فيمكن أن يتأخر النطق عندهم إلى ما بعد ذلك بكثير.

قد يتأخر الطفل في الكلام لعدة أسباب، منها عدم تشجيعه من قبَل الأبوين إما لأنهما قليلا الكلام ملتزمان بالصمت في معظم الأوقات، أو لأنهما لا يعززان سلوك الكلام لديه بالتحفيز والمكافأة، بل إنهما قد يعمدان إلى إسكاته كلما حاول الصراخ تفاديًا للإزعاج مع أنه في الحقيقة إنما يقوم بتدريب أجهزته الصوتية. وقد يكونان غير مطلعين على أساليب تدريب طفلهما على الكلام وغير مهتمين بتطوره اللغوي. وهناك أسباب خاصة بالطفل تؤخره عن الكلام، فهو أحيانًا يولد ذا عاهة تتعلق بالسمع أو بأجهزة النطق لديه.

أول كلمات يستطيع أن ينطق بها الطفل هي الأسماء الجامدة التي تدل على أمور حسية. ثم تظهر بعدها الأفعال ثم الصفات ثم الضمائر ثم الحروف، ويسير هذا الاتساع التدريجي في لغة الطفل جنبًا إلى جنب مع اتساع قدرته على فهم الكلمات. وتسيطر علاقة المشابهة على لغة الطفل في مرحلة التقليد فيسمى الحيوانات باسم أول حيوان عرفه، ويصرف الأفعال كلها بالصورة التي يصرفها لبعض الأفعال. كما يقلد الطفل الكلمات التي يسمعها من حوله وقد يداعبه أبواه فينطقان الكلمات نطقًا محرفًا يحاكيه هو، وهذا أمر لا يساعده في المستقبل فيفترض أن ينطق الأبوان والأقرباء الكلمات سليمة، وإن لم يستطع الطفل محاكاتها تمامًا حينها فإن ما يعلق في ذهنه هو النطق الصحيح.

والطفل سريع التقليد والمحاكاة وهو لذلك يستطيع أن يتعلم بسهولة أية لغة أجنبية إذا أُتيحت له فرصة الاختلاط بأهلها دون جهود استثنائية؛ لذلك فهو يستطيع الإلمام باللغة الأجنبية من الحاضنة أو من الروضة، مع ما قد يترتب على ذلك من سلبيات تطال لغة الأم إلا إذا أحسن تدبير الأمور.

وتبدأ مرحلة الاستقرار اللغوي عند الطفل في سن السادسة أو السابعة، ولذلك فإنه يجد صعوبة في تعلم لغة أخرى في هذه السن خاصة إذا لم يتعرض لهذه الخبرة في سن مبكرة؛ ولذا فإن تعليم لغة أخرى للطفل من الأفضل أن يتأخر في سبيل التركيز على لغته الأم التي يحتاج إلى إتقانها.

إن قدرة الطفل على اكتساب اللغة هو أمر طبيعي، فالله خلق عنده الاستعداد لذلك بأن زوده بأعضاء صوتية وجهاز عصبي وقدرة على النطق.

وقد قسم اللغوي (جسبرسن) النمو اللغوي عند الأطفال إلى ثلاث مراحل، وهي:

- مرحلة الصياح.
- مرحلة البأبأة.
- مرحلة الكلام، وهي تنقسم إلى فترتين:

١. فترة اللغة الصغيرة الخاصة بالطفل.

٢. فترة اللغة المشتركة أو لغة الجماعة.

يبدأ الطفل حياته بالاتصال بمن حوله، ببيئته وأهله ويتأثر تمامًا بهم فإذا ما قامت الأم بهدهدة طفلها وترقيصه والغناء له مع الحركات والنغمات والوزن والكلمة البسيطة، فإن كل ذلك يريحه ويسعده. وإن التعزيز والاستحسان يجعل الطفل أكثر قدرة على التعبير، وإذا لم يكن هناك تعزيز أو ثواب فلا شك أن ذلك يساعد على تأخر النطق. وتُعتبر "الرضاعة موقف كلي متكامل حيث تعطي الأم جرعات الحب والحنان إلى جانب الحليب وتعلم الطفل من خلالها كل سلوك طيب، وهو موقف ينمي الانتماء والارتباط والطمأنينة".

في عمر الطفولة المبكرة (سنتين إلى ست سنوات) تتحدد شخصية الطفل ويكتمل خلالها كثير من النمو الفسيولوجي والإدراك الحسي والقدرة على استيعاب الكثير من العادات والقيم الاجتماعية والأخلاقية، كما تمتاز هذه الفترة ببداية الاستقلال التدريجي والاعتماد على الذات.

فهناك نمو جسماني ونمو فسيولوجي: ينمو الجهاز العصبي "حيث يصل وزن المخ إلى ٩٠٪ من وزن مخ البالغ" ويتم التحكم في عملية الإخراج وتقل فترة النوم. كما ينمو الطفل حركيًّا ويكتسب مهارات جديدة، كالمشي والجري والتسلق وصعود السلم.

أما حسيًّا، فتتطور قدرته السمعية والبصرية ولهذا أثر لغوي ملموس. وينمو الطفل في هذه الفترة اجتماعيًا بصورة لافتة حيث يتعلم المعايير والقيم الاجتماعية والتمييز بين الصح والخطأ، وتتسع دائرة العلاقات الاجتماعية لديه بسبب النمو اللغوي والحركي والعقلي للطفل. ويجدر التركيز على النمو العقلي في هذه المرحلة وربطه بما ينبغي للطفل أن يسمع أو يشاهد أو يتحسس؛ وبالتالي أن ينمي لغته ويدرك أهميتها وقيمتها.

ففي هذه المرحلة ينشط حب الاستطلاع وتكثر أسئلة الطفل عن الأشياء ومسبباتها، كما يدرك العلاقات المكانية والأشكال والألوان والأحجام والأوزان والأعداد، ويدرك أيضًا معاني الزمن شيئًا فشيئًا.

وتنشط في هذه المرحلة قدرات التخيُّل والتذكُّر والتفكير والانتباه.

تطور النمو اللغوي:

يختلف العلماء والباحثون في نظريات التطور اللغوي، فبينما يرى بعضهم أن للغة جذوراً فطرية تكوينية يولد الطفل مزوداً بها، يرى آخرون أن اللغة عملية عقلية تخضع لنظريات التعلم المعروفة، فيما يقف آخرون في موقع توفيقي وسط. فهم يرون أن اللغة تتأثر بالعوامل الفطرية كما تتأثر بالعوامل البيئية.

يبدأ التطور بالحروف ثم بالكلمات العشوائية ثم الجمل العشوائية ثم الجمل المقصودة. يضع د. نبيل عبد الهادي هذا الشكل الذي يوضح مدى ارتباط أجزاء اللغة في التطور النمائي المتكامل لدى الطفل.

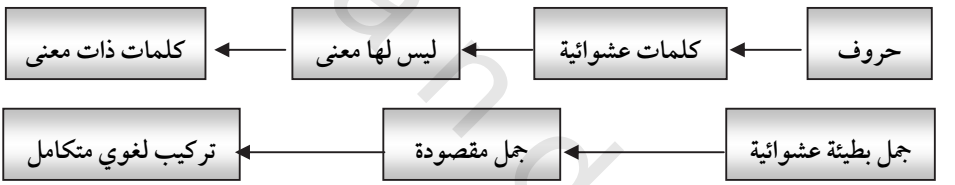

يتميز النمو العقلي في مرحلة الطفولة المتأخرة باستمرار استكمال نمو الوظائف الذهنية من إدراك وذاكرة وتطور، فالتفكير الحسي يتدرج شيئًا فشيئًا إلى أن ينتقل إلى تفكير تجريدي ثم افتراضي استنتاجي، وهو أرقى أشكال التفكير الذهني وآخر مراحل نمو التفكير وتطوره يصل إليها الطفل في مرحلة المراهقة كما يرى "بياجيه".

ويمكن استغلال هذه المرحلة التي تتميز بحب البحث والاستطلاع والاستقصاء، وهي إمكانات تختزنها شخصية الطفل لمستقبله في التربية والتعليم، مع إدراك أن هناك فروقًا فردية لدى الأطفال في مختلف جوانب نموهم: الجسمية والحسية والحركية.

جسميًّا: استغلال المهارات والقدرات الحركية في التربية الرياضية والتربية الفنية بأسلوب علمي تطبيقي.

عقليًّا : تنمية ملكة السؤال لدى الطفل باستفزازه وإثارته واستثارة العمليات العقلية المنشطة والمحفزة على التفكير والإبداع لديه وتمكينه من حرية التعبير عن آرائه وأفكاره .

اجتماعيًّا : في الأنشطة الرياضية والاجتماعية والكشفية والعلمية والفنية وتشجيع العمل في مجموعات .

العولمة:

تذكر الموسوعة الحرة (ويكيبيديا) أن العولمة في اللغة تعني ببساطة جعل الشيء عالمي الانتشار في مداه أو تطبيقه ، وهي أيضًا العملية التي تقوم من خلالها المؤسسات ـ سواء التجارية أو غير التجارية ـ بتطوير تأثير عالمي أو بدء العمل في نطاق عالمي .

ولا يجب الخلط بين العولمة كترجمة لكلمة **Globalization** وبين التدويل أو جعل الشيء دوليًّا كترجمة لكلمة **Internationalization** .

فالعملية عملية اقتصادية في المقام الأول ثم سياسية ويتبع ذلك الجوانب الاجتماعية والثقافية ، وهكذا .

أما جعل الشيء دوليًّا ، فقد تعني غالبًا جعل الشيء مناسبًا أو مفهومًا أو في متناول مختلف دول العالم . فالعولمة إذًا عملية تحكم وسيطرة ووضع قوانين وروابط وإزالة أسوار وحواجز محددة بين الدول وبعضها البعض .

وواضح من هذا المعنى أنها عملية لها مميزات وعيوب . أما جعل الشيء دوليًّا ، فهو مجهود في الغالب إيجابي صرف يعمل على تيسير الروابط والسبل بين الدول المختلفة .

ويشهد العالم حاليًّا ثورة الاتصالات والمعلومات وهي الثورة التي تجاوزت الثورة الصناعية والإنتاج المادي إلى إنتاج المعلومات ومعالجتها ، ومن ثَم تجاوز المهارات العضلية والأيدي الماهرة إلى المهارات الذهنية والبرمجية .

وقد تغير اقتصاد السوق تبعًا لذلك فأصبحت الثقافة الإلكترونية (ثقافة الصورة) تشكل المرجعية الثقافية للعولمة الاقتصادية .

فالعولمة في المقام الأول هي اقتصادية رافقتها عملية تطور هائل في تكنولوجيا الاتصال أدت إلى السيطرة والتحكم والخصخصة التي ترخي سيطرة الدول على إنتاجها ومقوِّماتها .

فإذا كانت العولمة من أجل التحكم والسيطرة وقَطْر الدول والشعوب في قافلة الدول النافذة التي تسعى لزيادة تخمتها من مصادر الشعوب والأمم ، وخلع خصوصيات هذه الأمم من قيم

وعقائد وعادات وتقاليد عن أهلها، وضخ القيم والثقافة الغربية التي تسعى إلى تهجين الشعوب والأمم وإخماد جذوة صحوتها ونهوضها وتسهيل سيطرة السوق والاستهلاك عليها، ومنع أو الحد من توفير فرص بعثها ـ فإن هذه العولمة بهذا الشكل تعتبر بغيضة وغير مرحب بها خاصة لدى الشعوب المتطلعة إلى التقدم والحضارة.

من جانب آخر إذا ما أصبح الإنسان هو المحور والهدف وهو المبتغى، فإن العولمة يمكن أن تكون إيجابية وبنَّاءة، يمكن أن تخرج من إطار الهيمنة والتسلط إلى أفق أوسع في الاعتراف بحقوق الإنسان والسعي إلى تطبيقها على جميع البشر دون تمييز أو استثناء في هذا البلد أو ذاك، حينها تكون العولمة ليست فقط مقبولة وإنما غاية يسعى إليها الجميع.

يُفترض أن لا تقتصر العولمة على العولمة التجارية والاقتصادية الحرة المهيمنة حاليًّا بل جعلها محببة للجميع ومرغوبة لدى الجميع؛ وذلك بترويج القيم الأخلاقية والروحية في المجتمعات ونشر قيم المحبة والسلام والتآلف واحترام الأديان والحوار والتعاون فيما بينها للوصول إلى كلمة سواء.

العولمة يجب أن تكون إنسانية تستجيب لحاجات البشر الملحة في السلام والعدالة والازدهار.

و لتقديم دور أفضل لدور الأديان في زمن العولمة، أسس كامران موفيد[1] عام ٢٠٠٢ في أكسفورد (حركة عولمة لتصالُح العالم).

يحاول الخطاب العلماني بوسائل مختلفة وبمصطلحات وتراكيب جديدة أن يبهر الجماهير وأن يوحي لها بأن لديه الكثير وأنه يمتلك مفاتيح النهضة والسعادة للبشر، بينما نجد أن خطابنا بضاعته ثمينة جدًّا ولكنه لم يحسن حتى الآن العرض بشكل لافت للأنظار.

لا بد من الارتقاء بالخطاب الإعلامي إلى المستوى المواكب للذوق المعاصر الذي يطرح صيغًا ومفاهيم جديدة تبتعد عن الأسلوب التقليدي الممل ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ (القمر: ٢٢).

اللغة العربية في مواجهة التحديات:

الحديث عن اللغة بطبيعته يقودنا أو يفضي بنا إلى حزمة من الأسئلة الإشكالية فرضتها الحالة العربية الراهنة، وما تواجهه من تحديات إقليمية وعالمية ومضاعفات هذه التحديات على دول العالم وعلينا ـ نحن العرب ـ بصورة أخص؛ حيث قُدر على أمتنا أن تكون مستهدفة وفق برامج ومناهج وخطط أقل ما تستهدفه هو فرض الوصاية والتبعية وفرض نمط حضاري محدد، وذلك لن

(١) كامران موفيد: مؤسس منظور الأديان عن العولمة للصالح العام، كما أنه رئيس المنتدى الاقتصادي لمؤسسة المصالحة في الشرق الأوسط. دكتوراه في الاقتصاد من جامعة برمنجهام ـ المملكة المتحدة (١٩٨٦). شهادة في التعليم في الدراسات الرعوية من كلية بلاتر في أكسفورد.

يكون إلا عبرَ إستراتيجية ممنهجة محكمة تقوم على اختراق البِنَى الأساسية المكونة لهيكلية هوية الأمة وشخصيتها المميزة .

وبصفة اللغة هي وسيلة التعبير الأولى والحامل الأساسي لمجمل العناصر المكونة لهذه الشخصية الهوية أو هي في الواقع الملاذ والحصن الأخير الذي يُحتمي به للوقوف أمام الهجمات، لذلك تأتي اللغة على سلم أعلى درجات القيم والعناصر المستهدفة؛ لأن اختراقها يعني ضمنًا اختراق البناء المجتمعي وفي صميم صلابته وتماسكه وبالتالي وحدته. حيث تحتل اللغة (حزام الأمان) لوحدة المجتمع.

اللغة العربية والإنتاج الفكري والإبداعي:

اللغة العربية في راهنها ليست لغة التراث الجاهلي أو الإسلامي فقد تطورت إلى حد كبير، سواء على مستوى الأداء التعبيري أو القدرة على الاستيعاب والتعبير عن القضايا بمختلف أنواعها . فقد ساهم الاحتكاك والتداخل المباشر والتأثر والتأثير بين العرب والآخر الغرب (العالم المتقدم)، ساهم بوضع اللبنات الأولى في التطوير اللغوي والتعبيري منذ عصر الإحياء والنهضة.

وقد سعى علماؤنا ومفكرونا وكُتَّابنا ومبدعونا وبذلوا جهودًا كبرى لتحديث اللغة العربية وتطويرها والعمل على تأهيلها لغة في مصاف اللغات الحية العاملة، عبر المؤتمرات القومية ودور النشر والمعاهد والجامعات والمجامع اللغوية، إلا إن تطوير اللغة وتأهيلها باتجاه المعاصرة والتحديث لن يتجسد واقعًا إلا أن يكون العرب أنفسهم من يصنعون لغة الفكر المعاصر . وهذا ما يؤكده (كتاب الخطة الشاملة للثقافة العربية) في التوصيات، حيث يؤكد " أن المشكلة ليست اللغة ولكن مشكلة صناعة الفكر، فحين تبدأ صناعة الفكر ستصنع الكلمة . كما إن الإنتاج الفكري النابع من ذواتنا نحن والمعبر عن تجربتنا وعن شخصيتنا وهويتنا ، هو الذي يقوم بإغناء اللغة وليس المجامع والتي لا تعدو أن تكون وظيفتها (تجميع وتنسيق) ومن ثَم تقدم حصيلتها، أضف إلى ذلك أن لغتنا لم تزل بعد محاصرة بالأمية وضعف التعليم ، والفكر التبعي وهذه العوامل هي التي لا تسمح بعد بالوصول إلى الإبداع الحقيقي وبالتالي الإبداع اللغوي[٢] .

اللغة العربية والمشكلات المحيطة:

إن تقصيرنا في صناعة الفكر وإنتاجه لا يعني مطلقًا تركنا الحبل على الغارب، بل ينبغي أن نسعى لتشخيص المشاكل والإشكالات التي تعتور اللغة وتزيح عن طريقها العقبات التي تقف دون تحديثها وتطويرها وتفجير إمكاناتها وطاقاتها الكامنة بصفتها الأداة والوسيلة التواصلية بين شعوبنا أفرادًا وجماعات، وبين مثقفينا وعلمائنا وكتابنا ومبدعينا من جانب آخر .

(٢) الإعلام العربي أمام التحديات المعاصرة، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية .

وبصفتها سمة الهوية الأولى المشتركة الجامعة لثقافتنا العربية الإسلامية، فقد أوجزت (الخطة الشاملة للثقافة العربية[٣]) أهم المشكلات والتحديات التي تنوء بها اللغة العربية كلغة إشكاليات لغوية ذاتية، أو تلك المشكلات التي تصاعدت وتيرتها وتهدف إلى تهميش اللغة والحد من انتشارها كلغة قومية تحمل سمات وملامح وثقافة المجتمعات العربية كافة متميزة بين الأمم .

لا شك أننا ورثنا لغة هي من أقدم وأعرق اللغات في العالم، وهذا ما يضاعف ويصعب من مهمة التحديث. فهذا العمق الزمني الضارب قد أوقع اللغة بين فكَّي الفقر من جانب والتضخم من جانب آخر، حيث تفتقر إلى التعبير عن المفاهيم والمصطلحات تلك التي لا تني تمطرنا بها حضارات العالم وبسرعة تفوق قدرتنا على متابعتها، ناهيك عن استيعابها و تبييئها ومن ثَم التعبير عنها .

ومن جانب آخر، فإن هذه اللغة التي طوت في طياتها وطبقاتها العديد من ثقافات العصور تسببت في تراكم المفردات وموت العديد من المعاني والدلالات وتكاثر المعنى الواحد في المفردة الواحدة، أو ذلك الترادف المفرط للمفردات في أحيان كثيرة .

من هنا ينبغي أن نتوخى تفهُّم اللغة السليمة، وفي هذا الجانب تُناط بوسائل الإعلام السمعية والبصرية العديد من المهام اللغوية، فالإعلام السمعي والبصري يمكنهما أن يوصلا هذه اللغة إلى الفئات العريضة من المجتمع في طول البلاد وعرضها .

ويمكن بهذه الوسيلة الدءوبة أن نرفع من مستوى العامية ونقربها إلى الفصحى.

غير أن هذه الجهود في الغالب تأتي بشكل عفوي وليس عن سياسة محددة وتوجيه مبرمج، وهذا ما نحتاج إليه .

ولمعالجة الظواهر السلبية المعيقة للتنمية اللغوية ينبغي معالجة هذه المعوقات، ومنها :

ـ طرق تعليم اللغة العربية في المدرسة ليست جذابة أو مرنة بما يكفي بسبب طرق التبليغ التلقينية السيئة.

ـ ظروف المزاحمة التي تلقاها العربية، فهي تلقي مزاحمة مزدوجة من العامية من جهة ومن اللغات الأجنبية من جهة أخرى .

ـ مدى استجابة اللغة لحاجات العصر والتجاوب مع مفاهيم الحياة العلمية واليومية الحديثة (ولعل سلبية المثقفين يحرم اللغة العربية من حيويتها) .

(٣) *الخطة الشاملة للثقافة العربية ـ ١٩٩٠م . *المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . *المصدر السابق .

ـ وثمة نظرة دونية يُنظر بها إلى اللغة العربية في المجالات العلمية خاصة، وتعبِّر هذه النظرة عن نفسها في لغة تدريس العلوم ولغة الأبحاث العلمية التي تسرب التعابير والمصطلحات الأجنبية دون تبييء هذه المصطلحات والتحقق من صلاحية مفاهيمها إلى لغة المثقفين.

العامية واللغات المتعددة:

يمكن تشبيه اللهجات العامية بالأحواض أو البيئات الحاضنة للغة الفصحى، فبقدر ما تتضرر وتتشوه هذه الفصحى في عصور الرِّدَّة والانكماش، فإنها تتغذى وتنمو في حراك هذه اللهجات.

لا بد أن يبقى نوع من الفرق بين الخطاب اليومي والخطاب الفكري. الازدواجية اللغوية موجودة في القديم والحديث، لكن الكتابة هي الحد الفاصل في تنمية الفصحى والحفاظ على وجودها وتطورها.

ولذلك تتحمل وسائل الإعلام المكتوبة بصورة أخص العبء الأكبر من المعادلة اللغوية، فالإنتاج الفني تحديداً كثيراً ما يدعم العامية على حساب الفصحى، ويعمل على تنميتها وتجديدها عبر البرامج والدراما.

المهم هنا هو التأكيد على سلامة اللغة المكتوبة فهي أَوْلَى الأمور بالمعالجة، وما دامت اللهجات العامية غير مكتوبة فليس لها ذلك الخطر.

ومن هنا نتفهم خطورة دعوات وتشجيع القوى الأجنبية للهجات المحلية والحث على الكتابة والتعليم بها.

والخلاصة، أن ثمة لغات متعددة دومًا في اللغة الواحدة، فكل فئة اجتماعية أو علمية لها لغتها الخاصة: فلغة للصحافة، وأخرى للأطباء، وثالثة للأدباء ورابعة للمهندسين أو البيولوجيين، ولا بأس أن تكون كل فئة مسئولة عن لغتها دون أن يُفرض عليها شيء من الأعلى.

اللغة العربية والصحافة:

تمثل الصحافة اليوم الاختبار الحقيقي والمعيار التقييمي لإمكانات وطاقات اللغة للتعبير عن الرأي ونشاطات الفكر، حيث تأخذ الصحافة الشكل المؤثر للوعي الاجتماعي والسياسي والثقافي والروحي؛ كونها الأوسع انتشاراً إلى جانب وسائل الإعلام الأخرى: مرئية أو مسموعة.

وقد تميز التعريف بالصحافة بجانبها التخصصي، حيث يشمل الكلمة المكتوبة والمقروءة.

أما مفردة إعلام كمصطلح، فتأخذ صفة التنوع في الاختصاص بجوانبه المتعددة من أخبار ومعلومات وتقارير، سواء كان مرئيًّا أو مسموعًا أو مكتوبًا.

و تستطيع الصحافة أن تخوض غمار الطفل وتنتج له ما يهمه ويثيره ويوقد فكره ويضيء له طريق السؤال والاستقصاء والتحدي.

و من هنا، فان الصحافة العربية لا بد لها من تطوير آلياتها وأدواتها ولغتها وأسلوبها، وأن تعتمد ـ إلى جانب وكالات الأنباء العالمية ـ على ذاتها لتصنع أساليبها النيِّرة والمثيرة.

اللغة العربية والإعلان:

تُعتبر الدعاية والإعلان أسلوبًا ناجعًا للتأثير في الأفراد وتوجيه سلوكهم نحو سلعة معينة، سواء كانت هذه السلعة مادية أو فكرية.

وتختلف أساليب التأثير في الإعلان بين مخاطبة العقل أو الغرائز واعتماد الصدق والحقيقة أو اللف والدوران والإثارة، وهي على العموم وسائل ذات تأثير كبير خاصة على الأطفال الذين لم تتسع بعد مداركهم للتمييز وحسن الاختيار. أضف إلى ذلك إذا ما ضمت تلك الإعلانات والدعايات أغاني ذات وقع خفيف وسريع الحفظ والترديد، أو صوراً كارتونية مشوقة تسهُل محاكاتها.

إن مثل هذه الإعلانات يمكن أن تكون جزءاً من عملية هدم اللغة أو بنائها.

اللغة العربية والإذاعة:

الإذاعة هي إحدى أهم وسائل الإعلام الحديثة، بل إنها أهم هذه الوسائل على الإطلاق إذا علمنا أن الإذاعة (مرئية ومسموعة) تُضاف إليها التقنية الحديثة على الإنترنت.

والإذاعة في عصرنا الحالي تنوعت وتطورت وتعددت استخداماتها، فإلى جانب الإذاعة(الراديو والتليفزيون) هناك الإذاعة المدرسية والإذاعة في المجمعات التجارية والمطارات والمستشفيات والمؤسسات والشركات، ولكل من هذه الإذاعات أهداف وأدوار.

و يعنينا من أهداف الإذاعة مساهمتها في بناء الفرد عقليًّا ونفسيًّا ووجدانيًّا. ولتكون مؤثرة وفاعلة لابد لها من توخي الأساليب المشوقة والممتعة والمفيدة في جميع برامجها: المسابقات، اللقاءات، الندوات، المناظرات، التمثيليات والمسرحيات، القصص، الأشعار، الأناشيد والأغاني، الأفلام...

في كل هذه البرامج تشخص اللغة العربية كأسلوب للتعبير والتفكير والإتقان والجودة.

اللغة العربية والقراءة:

اللغة العربية المكتوبة لابد أن تكون هي اللغة الفصحى، وما يُكتب للأطفال لا بد وأن يتماشى مع مستوياتهم العمرية من جهة، وما يتناسب مع بيئتهم واستعمالاتهم الحياتية الوظيفية للغة من جهة أخرى بحيث تقدم للأطفال المفردات اللغوية الفصحى الشائعة في حياتهم تحدثًا وكتابة.

ولذلك، فإن الحاجة ماسَّة لقرار عربي تتفق عليه المنظمات العربية المعنية في جميع المفردات الخاصة بالأطفال، أو تلك التي يشيع استعمالها لديهم في مختلف المستويات الدراسية خاصة في مرحلة التعليم الابتدائي بتدرج موضوعي يلتفت إلى مدارك الطفل ومستواه العقلي، ومن ثَم توحيد هذه المفردات وتحديد المفردات الوظيفية منها، إضافة إلى توحيد الألفاظ العلمية والفنية.

إن لكل فئة عمرية من الأطفال رصيدًا لغويًّا لا بد أن يستخدم عند التحدث أو الكتابة وإن ما يكتب لطفل السابعة والثامنة مثلاً، يجب ألا يكون كذلك الذي يكتب لطفل أكبر عمرًا.

ونظرًا لأن لغة الكتابة ينبغي أن تكون هي اللغة الفصحى، فإن التحفيز على القراءة وتشجيع الأطفال على ممارستها والتعود عليها بمختلف الوسائل هو أمر بالغ التأثير في لغة الطفل. وإن خلق بيئة غنية بالقراءة والمطالعة في البيت وفي المدرسة يؤدي بالأطفال إلى حب القراءة والاستمتاع بها؛ مما يجعلها أسلوبًا وسلوكًا حياتيًّا.

كما أن كتاب الطفل ـ سواء كان كتابًا مدرسيًّا أو غير مدرسي ـ لا بد أن يكون جذابًا وجميلاً، ويراعي سمات الإبداع و التفكير الناقد والمضمون المفيد والمبهج واللغة الميسرة المناسبة.

و إذا تعلق الأمر بالكتاب المدرسي، فلا بد لهذا الكتاب أن يبنى على أساس تنمية التفكير النقدي والإبداعي هو الآخر، وأن يكون أداة جيدة لمنهج دراسي يعتمد على أساس تنمية التفكير وتطوير أساليب التقويم والامتحانات لتكون بديلاً عن ثقافة الذاكرة والحفظ والتلقين.

وقد اكتشف إيكلاند أنه لكي تكون القراءة ناجحة منذ البداية عند الأطفال فإنها تتطلب:

ـ بيئة غنية باللغة المقروءة والمكتوبة.

ـ الالتصاق بالبالغ الذي يقرأ كثيراً مع الأطفال ويكافئهم عند المحاولات.

ـ الوصول إلى مرحلة العمليات العيانية الخاصة بالنمو المعرفي.

ـ التفاعل مع البالغ المهتم بتعليم الصغار القراءة).

اللغة العربية والتعليم:

لا ينفصل دور التعليم عن التربية بمعناها الواسع، إذ هو أحد أدواتها المهمة لتحقيق النماء الإنساني المتكامل لشخصية الطفل فكرًا، ووجدانًا، وإبداعًا، ويتأكد دور التعليم في هذا المجال،

حين يتعلق الأمر بالتربية اللغوية، وما تتأسس عليه من تنمية للحس اللغوي (في زمن العولمة) والتي لم تقتصر في مراميها على تزويد التلاميذ بالمعارف اللغوية، أو تلقينهم جملة من المواعظ والأخلاق ومطالبتهم من ثَم بالالتزام بها، ليكونوا وفقًا للقائمين على أمور التعليم مواطنين صالحين، منضبطين وفق القواعد المرعية، ومندمجين بالتالي في منظومة القيم المتعارف عليها في إدارة مجتمعهم وتيسير شئونهم وغاياتهم.

إذًا فالتعليم اللغوي ـ في زمن العولمة الثقافية والمعرفية ـ مطالب بالتلاؤم المرن مع متطلبات التربية واللغة التواصلية ـ التفاعلية العصرية المعنية بتكوين قدرات الناشئة والارتقاء بكفاياتهم اللغوية، وذلك من خلال تزويدهم بأدوات لغوية، تواصلية وتعبيرية، وإبداعية مع تمكينهم في الوقت ذاته من استيعاب وتمثل منظومة القيم الروحية والإنسانية المنفتحة على أفق التواصل اللغوي/ التقني الخلاق والواعي عبر شبكة "الإنترنت" وما تنتجه من أفق الانتماء الكوني إلى القرية العالمية الإلكترونية، وفضاءات المواطنة العالمية التي يتطلب تعليمنا لغة الوحي الإلهي الخالد " القرآن الكريم " استحضار مسئولية دورنا الحضاري في أداء أمانة أعمار الكون، أعني وفق هذه المقاربة، المشاركة بواسطة لغة القرآن الكريم في إنتاج المعرفة، لا الاكتفاء بدور المتفرج السلبيّ الأبله في استهلاك ما تجود به علينا المجتمعات الأخرى، عبر لغاتها ووسائط اتصالها، لثقافتها وصولاً إلى الهيمنة على مقادير حاضرنا ومستقبلنا، وكأننا أي أمة (اقرأ) لم نكن عبر تحدي خالقنا لإبليس مطالبين فرضًا باستخلاف أمانة أبينا آدم (ع) "وعلم آدم الأسماء كلها " فكان استحقاق سجود الملائكة لأبي البشر قيمة عليا بأمر من الله للمعرفة في تجلياتها المتعاظمة ـ حتى قيام الساعة ـ أمام الاستكبار الشيطاني المتمثل في معصية أمر السجود لآدم، وهذا هو الدور الأزلي لقيمة التعليم ـ فيما أرى ـ تحقيقًا للسمو الإنساني عبر اللغة، في حقيقة كونها أداة بناء الفعل الإنساني الخلاق المتفاعل عبر الأزمنة و الأمكنة، والذي بدونه لا تحقق لغتنا العربية في زمن العولمة كينونتها الثقافية والحضارية، إذ بواسطته يتسنى للأجيال التواصل مع معطيات عالمهم المعرفية المتدفقة، قيمًا إنسانية وخصوصيات وإبداعات ليس أمامها إلا أن تتعايش متعاضدة على أرض كوكبنا وعبر فضاءات التواصل الإلكتروني العابر لقاراته.

اللغة العربية والمناهج:

يبدو الدور المنوط بمناهج تعليم اللغة العربية أكثر خطورة اليوم انطلاقًا من غايات التعليم في عصر العولمة؛ إذ إن منظومة مناهج تعليم لغتنا (الأم) مطالبة في عصر العولمة بالسعي إلى دمج جملة من المفاهيم والقيم والقدرات والمهارات اللغوية التواصلية في نسيج الدرس اللغوي الحديث تلقيًّا وإنتاجًا، مسموعًا ومقروءًا وخطابًا شفويًّا، على نحو يحقق لدى الناشئة كفايات التواصل اللغوي الحي، المجافي لآليات التلقين والاسترجاع والحفظ، وصولا إلى تربية القارئ المبادر والمبدع،

المتذوق والناقد الذي يدير تواصله الخلاق المبدع بواسطة اللغة اتفاقًا واختلافًا ومشاركة في بناء خطابات عصرية تعترف بالآخر وتتكامل معه إنسانيًّا وحضاريًّا. ومناط تحقيق ذلك يتوقف على حسن اختيار النصوص الحضارية التداولية وطرائق توظيفها، والاهتمام بالنوع لا الكم المتراكم وبالكفاية التعليمية لا بالمعلومة. وبالتدريب اللغوي الوظيفي لا الشكلي استرشادًا بما تتيحه النظريات التربوية الحديثة أمام واضعي المناهج من تطبيقات نتائج الدراسات النفسية اللغوية والاجتماعية ـ الثقافية الحديثة في مجالات علم النفس اللساني وعلم الاجتماع اللساني، ونظريات الذكاء المتعددة التي لا تغفل دور البرمجيات المتطورة في مجالات الذكاء الاصطناعي الرقمي ووظائف كل ذلك في تعليم اللغة العربية وتداولها، مع عدم إغفال إمدادات الكفايات اللغوية التواصلية والتعبيرية في توظيف التعلم اللغوي الحديث الذي يعتبر القراءة والكتابة والتواصل الشفوي كفايات أساسية تعين الطفل على الدراسة والتحصيل في المواد الدراسية المقررة الأخرى، وذلك من شأنه تحقيق الاندماج اللغوي التعلمي العضوي بين مختلف المواد الدراسية وإعطاء اللغة الأم دورًا مركزيًّا في مناهج التعليم، يرقى بدورها التكويني ـ التربوي، بما يعزز أثرها في نفوس الناشئة وعقولهم، بوصفهم مواطني المستقبل، ورواد حضارة الأمة في فضاءات القرية العالمية الإلكترونية الصغيرة، وهذا هو الرهان الذي ـ بدونه في نظري ـ لن تستطيع مناهجنا الدراسية الارتقاء بعمليات تعليم اللغة العربية على النحو التداولي ـ التفاعلي الناجع، بوصفها لغة للحياة والعلم والمستقبل.

اللغة العربية والمدرسة:

أما دور المدرسة، فانه ينطلق من جميع المعطيات السابقة، إذ إن مدرسة المستقبل وفقًا لدور المنهج المدرسي الحديث، تُعد بيئة اجتماعية ـ ثقافية تربوية حاضنة لمنظومة المفاهيم والقيم والخبرات اللغوية التواصلية والإنمائية. في رحابها تتأسس شخصية الطفل متعلمًا ومواطنًا ومسئولاً تتدرج على سلم مسئولياته تبعات تشكيل هوية الطفل الوطنية وملامحه الأصيلة على نحو تتوازن في مكوناته قيم وتراث الأرض وأصالة انتمائها الإسلامي العربي، وتتبلور متطلبات انفتاحه الواعي والمسئول على آفاق الحضارة العالمية لمواجهة اغترا بات العولمة الثقافية ووحشية اقتصاد السوق اللذين يحتّمان على مدرسة الغد إعداد الناشئة ـ بواسطة لغتهم الأم ـ لاستيعاب ما تمليه عليهم تبعات العولمة وتداعياتها بموازاة تربية روح الاعتزاز والوفاء الخلاق لتراثهم واستلهام العطاءات الإنسانية التي أضافتها الأمة إلى نهر الحضارة الإنسانية الدافق على مدى الأزمنة والأمكنة في جميع محطات التاريخ البشري، وذلك يحتم على المدرسة تمكين طلابها من إتقان مهارات التواصل اللغوي بواسطة لغة عالمية أخرى تمكنهم من إتقان كفايات التواصل والعيش المشترك القائم على فهم ثقافات الشعوب الأخرى، والتفاعل مع القيم الإنسانية المشتركة لبناء كوكب الأرض الذي

تُعد مدرسة الغد (العربية) إحدى مساحات الفعل التربوي العربي لإعداد الأجيال للتلاؤم مع حاجات المجتمع المحلي، الذي يُعد ـ شئنا أم أبينا ـ جزءاً من المجتمع الكوني بعوالمه المتنوعة، ثقافيًّا واقتصاديًّا وبيئيًّا مع عدم إغفال دور المساحات التربوية الأخرى، الأسرة، والمجتمع، ودور الثقافة وأجهزة الإعلام والاتصال وغيرها.

منهج مطور لتعليم اللغة العربية في البحرين:

يؤسس التنظير التربوي العربي مند أكثر من نصف قرن لمقاربة فعل تربوي حضاري، إلا أنه ينبئ بالكثير من الإخفاقات، وخاصة فيما يتعلق بتربيه عربية، تتعزز في ممارساتها مكانة اللغة العربية الأم، والتي باتت تنحسر لا لمصلحة لغة أخرى، بل لصالح إخفاق دراسة اللغة الأخرى كذلك، وذلك لسبب بسيط، هو أن من يخفق في إتقان لغته الأم سيخفق بالنتيجة في إتقان ما سواها من اللغات بهذا القدر أو ذاك .

من أجل ذلك سعت وزارة التربية والتعليم / وحدة مناهج اللغة العربية للتعليم الثانوي بمملكة البحرين ـ على سبيل المثال ـ إلى تنظيم أول مؤتمر تربوي خاص بتعليم اللغة العربية وتطوير مناهجها في عام ٢٠٠٤م، وعمدت في ضوء دراسات لميول الطلبة القرائية ونتيجة جملة من المقاربات المتعلقة بتدريس كفايات اللغة العربية التواصلي والتعبيري، خاصة بالتأسيس لتدريس الطلبة في المرحلة الثانوية أنماط الوصف والسرد والحِجَاج (تلقينًا وإنتاجًا) وتجريب مشروع القراءة الموحدة (الحرة) للآثار الأدبية الكاملة، والتأسيس لتَدريب الطلاب على كفايات إعداد الورقة البحثية وإنجاز منهجية المشروع، وإعداد التقارير الصفية ذات الأغراض المتعددة. في ضوء هذه الخبرة المتراكمة عمدت وحدة اللغة العربية للتعليم الثانوي على مدى عامين دراسيين إلى إنتاج وثيقة منهج مطور لتعليم اللغة الأم، راعى في بنائه وتصميم خبراته، وتنظيم خطته، واقتراح استراتيجيات تدريسه وتقويمه، وانفتاحه المرن على قابلية التطوير والتحسين المستمرين، راعى المنطلقات السالفة الذكر في بناء منهج تدريس اللغة الأم لطالب القرن الحادي والعشرين في المدرسة البحرينية. والوحدة الآن بصدد إعداد الكتب والمواد التعليمية، والإثراء الإلكتروني لها، ومن ثَم تجربتها في مدارس النظام الأكاديمي الموحد للتعليم الثانوي، وعلى هذه الخطوة يتم التأسيس لتطوير مناهج اللغة العربية لبقية المراحل التعليمية السابقة، ويؤصل توجيه برامج تعليم اللغة العربية في المرحلة الجامعية، في جامعه البحرين وفقًا لهذه الوجهة المتطورة، بالتوافق على مستوى التخطيط والمشاركة في فرق التأليف، مع أساتذة مشهود لهم بالخبرة في هذا المجال سعيًا إلى ترجمة توجهات المنهج المطور المعنيّ إلى إجراءات تدريس وتكوين لغوي على مستوى الكتب والأدلة والإثراء اللغوي والإلكتروني، وغير ذلك من متطلبات إعداد الناشئة لمواجهه استحقاقات عصر العولمة الثقافية وتبعاته الثقافية والتقنية والعلمية.

مما سبق يمكن أن نستخلص التوصيات التالية:

- إعطاء عناية فائقة باللغة العربية وتعزيز النظرة السامية لها في المناهج والكتب الدراسية واستخدامها في تدريس العلوم والفنون وفي الأبحاث العلمية .
- التأكيد على اللغة العربية كلغة مكتوبة ومقروءة ولغة الإبداع والتخفيف من مزاحمة اللهجات العامية والتعابير الأجنبية في لغة الحديث والدراما .
- تعزيز التعاون المشترك بين الدول العربية والإسراع في تكوين تكتل اقتصادي عربي (سوق عربية مشتركة) يساهم في التقليل من الآثار السلبية للعولمة .
- تجسير الفجوة بين التعليم العام والتعليم الخاص، وذلك برفع مستوى الجودة في التعليم العام ليضاهي التعليم الخاص والتأكيد على تعليم اللغة العربية في مدارس التعليم الخاص .
- دعوة المؤسسات العربية : الجامعة العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم " ألكسو " ، ومكتب التربية العربي لدول الخليج العربية) لإنشاء مركز عربي لتطوير تدريس اللغة العربية .
- تفعيل دور المؤسسات العربية مثل اتحاد الإذاعات العربية ومؤسسة الإنتاج البرامجي المشترك لإنتاج أعمال إذاعية وتليفزيونية تعتمد اللغة العربية كلغة خطاب .
- صياغة بنًى جديدة تؤدي إلى التناغم بين نماء الاقتصاد والحرص على تطويره وربطه بالنظم الاقتصادَية العالمية، وبين التخطيط الجيد للتعليم وتجويد التعليم حيث هو أحد أهم المخرجات الرئيسة لسوق العمل .
- تبيىء المصطلحات العلمية والتعابير الأجنبية والتحقق من صلاحية مفاهيمها في لغة المثقفين، وبالتالي تبسيط الألفاظ والعبارات في الإنتاج الموجه للأطفال .
- وضع التشريعات الخاصة بسلامة استخدام اللغة العربية في الأماكن العامة (الحدائق ـ المستشفيات ـ الأسواق ـ الأندية . . . الخ)، وذلك في البيانات واللافتات والصور والعبارات . . .
- إبداع شخصيات كارتونية عربية مثيرة وجذابة تستخدم في القصص والمسلسلات التليفزيونية والإذاعية .

ـ استغلال فنون الإعلام المختلفة لتعميم وتعزيز اللغة العربية الفصيحة الميسرة، من خلال الأفلام وأفلام الكارتون والمسلسلات والأحاديث واللقاءات والأناشيد والأغاني والمسرحيات والقصص. . . .

ـ تحقيق الجاذبية والإثارة والمتعة في تعليم اللغة العربية وخاصة في التعليم الأساسي، مع مراعاة الطفل وعالمه الخاص الذي يجعل الخيال حقيقة.

ـ توعية الوالدين بمختلف الطرق والوسائل ـ بأساليب التعامل مع أطفالهم بالحسنى والتحفيز والثواب المستمر وتهيئة البيئة اللغوية المناسبة للمساعدة على تطوير اكتساب اللغة لديهم.

ـ تفعيل دور المدرسة والتأكيد على ضرورة اهتمامها بالقيم العربية والإسلامية والتراث العربي والإسلامي، وتقريب التراث الأدبي واللغوي الثري وتبسيطه ليكون في متناول الأجيال.

ـ مراعاة الفروق الفردية عند الأطفال في مختلف جوانب نموهم: الجسمية والحسية والحركية عند التعليم.

ـ العناية بالمكتبات المدرسية وتطويرها وتزويدها بالكتب والمجلات والصحف المناسبة والإنترنت (مواقع مختارة)، وتخصيص الميزانيات والإمكانات التي تفي بمتطلباتها.

ـ مراعاة سمات الإبداع عند الكتابة للطفل وتعزيز التفكير النقدي وإثارة الأسئلة والحديث عن المستقبل والتخيل الحر.

ـ العناية بالجانب الجمالي اللغوي عند الكتابة للطفل، بتقديم الصور والأخيلة والأساليب البلاغية الميسَّرة والمحسِّنات البديعية.

ـ البدء في تعميم التعليم الإلكتروني والتركيز على جودة المخرجات، من خلال الارتقاء بالبيئة المدرسية وتوفير الأجواء المُثْلى للتعليم.

ـ المراجعة الشاملة لكتب الأطفال من قبَل مؤسسات متخصصة تشمل المضامين والأفكار، والتأكد من سلامة اللغة نحواً وصرفًا وإملاء ومعجمًا وسلامة القضايا العلمية الواردة بها.

الخاتمة:

وبعد ،

فاللغة هي الفن و الأدب والعلم .

والسوق هي التجارة والاقتصاد والمعاملات . وكلاهما يشكلان عصب الحياة .

كان في مكة سوق عكاظ تشملهما معًا .

سادة قريش أرسوا مكانتهم بالسوق وباللغة . بالسوق تسيدوا وباللغة نسجوا كيانهم وبشعرهم صانوا خصوصياتهم وتباهوا بأمجادهم وأنسابهم وأقوامهم وقوتهم وأخلاقهم وصفاتهم وعاداتهم، فكان شعرهم ديوانهم (الشعر ديوان العرب) .

ثم جاء الإسلام بنوره، جاء بالقرآن من الخالق العظيم على محمد العربي الأمين: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾ (البقرة: ١٥١) .

وأصبحت اللغة العربية ليست لغة القوم أو الأمة فقط، وإنما أيضًا لغة العقيدة والإيمان .

واليوم تتعرض هذه اللغة لهجمات شرسة لا ينقصها التنظيم، فيما المسئولية تزداد وتتسع على أبناء هذه اللغة الكريمة أفرادًا ومؤسسات ، شعوبًا وحكامًا لإعادتها إلى مكانتها، وانتهاج أفضل وأطيب وأحدث السبل التعليمية والإعلامية والبحثية والنقدية المستنيرة، واستخدام التقنية ووسائل الاتصال والإعلام الحديثة لتمكينها وتعزيزها لدى الناشئة بخاصة، فهم غرس المستقبل .

ولنبدأ الآن، لنضع أقدامنا في الطريق الصحيح بإنشاء مراكز اللغة والبحث والإنتاج اللغوي بعيدًا عن الخلافات السياسية وبعيدًا عن روح الأنانية البغيضة . فالسياسة للأفراد واللغة للجميع .

المراجع:

- ارتقاق اللغة عند الطفل من الميلاد إلى السادسة، د. صالح الشماع، دار المعارف بمصر.
- التدريس للطلبة المتفوقين ٢٠٠٢، دار الفايردن للنشر والتوزيع بيل والاس، ترجمة باعتماد د. خالد العامري.
- اللغة والفكر عند الطفل، جان بياجيه، ترجمة د. أحمد عزت رامح، ط أولى ١٩٥٤، مكتبة النهضة المصرية.
- نشأة اللغة عند الإنسان والطفل، د. علي عبد الواحد وافي. مكتبة غريب، ط ثالثة مارس ١٩٧١.
- علم نفس النمو الطفولة والمراهقة، د. رمضان محمد القذافي المكتبة الجامعية، الإسكندرية.
- مدلولات النمو ومشكلاته د. نبيل عبد الهادي، الأهلية للنشر والتوزيع، ط(١)٢٠٠٥.
- سيكولوجية الطفل والمراهق، واطسون وهنري كلاي ليندجرين، مكتبة مدبولي٢٠٠٤.
- انهيار العولمة، جون رالسون فايكنج ـ كندا ٢٠٠٥.
- الطفل واللغة، ط (١) ١٩٩٣ د. الغالي أحر شاو، المركز الثقافي العربي بيروت، الكتاب الأول والكتاب الثاني.
- سيكولوجية الطفل. نظريات النمو النفسي، ط(٢) ٢٠٠٣، منشورات مجلة علوم التربية، ع ١٤.
- قراءات الأطفال عام ٢٠٠٠، د. حسن شحاتة، الدار المصرية اللبنانية.
- أصول تدريس العربية بين النظرية والممارسة(المرحلة الأساسية الدنيا) د. عبد الفتاح حسن البجة ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط(١) ٢٠٠٠م.